سلسلة تفريغات البرجس (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

حاجَةُ الأُمَّةِ إلى أَهلِ العِلمِ

محاضرة مفرغة لفضيلة الشيخ:

عبد السَّلام بن برجس آل عبد الكريم

-رحمه الله تعالى، وطيب ثراه-

فَرَّغَهَا وَأَعَدَّهَا: مُحَمَّد عِمَاد نَوفَل
عفا الله عنه

WWW.DAAWAH.NET

[الْحَمْدُ لِلَّهِ،] وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ؛ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ الْفَرَحَ يَغْمُرُ الْقُلُوبَ بِمَا نُشَاهِدُهُ مِنْ إِقْبَالِ هَؤُلَاءِ الشَّبِيبَةِ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ وَالتَّزَوُّدِ مِنْ أَحْكَامِ شَرِيعَةِ اللَّهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ؛ فَأَنْتُمْ ـ أَيُّهَا الشَّبَابُ ـ عِمَادُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَنْتُمْ مَحَطُّ آمَالِهَا، تَتَطَلَّعُ إِلَيْكُمْ؛ حَتَّى تَقُومُوا بِوَاجِبِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

وَإِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ إِنَّمَا يَكُونُ التَّوْفِيقُ حَلِيفَهُ إِذَا سَلَكَ طَرِيقَةَ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ـ؛ حَيْثُ قَالَ: «مَنْ نَهَجَ غَيْرَ مَنْهَجِ السَّلَفِ فِي تَلَقِّي الْعِلْمِ؛ حُرِمَهُ».

فَجَدِيرٌ بِمَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ، وَحَقِيقٌ بِمَنْ هَيَّأَهُ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لِحَمْلِ هَذَا الْأَمْرِ الثَّقِيلِ وَهَذِهِ الْأَمَانَةِ الْكَبِيرَةِ أَنْ يَتَلَمَّسَ السَّبِيلَ الْمُوصِلَ إِلَى هَذَا الْعِلْمِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُهُ ـ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ ـ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ فِي اللَّهِ، حَاجَةُ الْأُمَّةِ إِلَى الْعُلَمَاءِ حَاجَةٌ مُلِحَّةٌ، كَحَاجَةِ الْجِسْمِ لِلْمَاءِ وَلِلْهَوَاءِ حَتَّى يَبْقَى وَحَتَّى يَسْتَمِرَّ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَلَنْ أُضِيفَ إِلَى مَعْلُومَاتِكُمْ جَدِيدًا إِنْ تَحَدَّثْتُ عَنْ فَضْلِ الْعُلَمَاءِ وَمَكَانَتِهِمْ فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ فَذَلِكَ أَمْرٌ مُتَقَرِّرٌ فِي النُّفُوسِ، مَعْلُومٌ لَدَى أَكْثَرِ طَلَبَةِ الْعِلْمِ.

وَيَكْفِي أَنَّ اللَّهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ اسْتَشْهَدَ بِهِمْ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْبَشَرِ ـ عَلَى مَاذَا؟ ـ عَلَى أَعْظَمِ قَضِيَّةٍ، وَأَكْبَرِ مَسْأَلَةٍ؛ وَهِيَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَاسْتِشْهَادُ اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بِهِمْ دُونَ غَيْرِهِمْ دَلِيلُ فَضْلِهِمْ، وَدَلِيلُ ثِقَتِهِمْ، وَدَلِيلُ عِظَمِ مَكَانَتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وَهَكَذَا هُمْ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ.

فَإِذَا عَرَفْنَا فَضْلَ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّنَا لَا بُدَّ أَنْ نَكُونَ قَدْ أَدْرَكْنَا أَنَّ فَضْلَهُمْ لَيْسَ لِذَوَاتِهِمْ؛ وَإِنَّمَا لِمَا حَمَلُوا مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ، وماحَفِظُوا مِنْ تَرِكَةِ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ.

فَإِنَّهُمْ هُمْ أُمَنَاءُ اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عَلَى شَرِيعَتِهِ، هُمُ الْقَائِمُونَ لِلَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بِالْحُجَّةِ عَلَى خَلْقِهِ، هُمُ الذَّابُّونَ عَنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ، هُمُ الْمُبَلِّغُونَ عَنِ اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، هُمُ الْمُوَقِّعُونَ عَنِ اللَّهِ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ.

فَهَذِهِ الطَّبَقَةُ مِنَ الْمُجْتَمَعِ طَبَقَةٌ يَعْرِفُ مَكَانَتَهَا وَيَحْفَظُ حُقُوقَهَا مَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِقَبُولِ أَوَامِرِ اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وَأَوَامِرِ رَسُولِهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ.

وَإِنَّ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَهُ شَبَابُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ: أَنَّ أَعْدَاءَ الْأُمَّةِ إِنَّمَا يَسْعَوْنَ جُهْدَهُمْ فِي الْقَضَاءِ عَلَى الْعُلَمَاءِ، إِمَّا عَنْ طَرِيقِ إِبَادَتِهِمْ، أَوْ عَنْ طَرِيقِ تَشْوِيهِ سُمْعَتِهِمْ وَالتَّقْلِيلِ مِنْ مَكَانَتِهِمْ.

وَلِهَذَا؛ لَـمَّا دَخَلَ الاسْتِعْمَارُ بِلَادَ الْإِسْلَامِ فِي الْقَرْنِ الْـمُنْصَرِفِ، كَانَ مِنْ أَوَائِلِ مَا عَمِلَهُ: أَنْ شَوَّهَ صُورَةَ الْعُلَمَاءِ، وَأَقْذَعَ فِي سَبِّهِمْ.

لِـمَ؟ حَتَّى يَكُونَ هُنَـاكَ حَاجِـزٌ بَيْنَ النَّاسِ عُمُومًا وَبَيْنَ الْعُلَمَاءِ؛ فَيَتَخَلَّى الشَّيْطَانُ بِالنَّاسِ، وَيَتَفَرَّدُ بِهِمْ؛ فَتَكُونُ الْهَلَكَـةُ، وَيَكُونُ الشَّـقَـاءُ لِـهَذِهِ الْأُمَّةِ؛ فَيَزْدَادُ ضَـعْـفُـهَا، وَيَكْثُرُ شَرُّهَا، وَتَفْشُو فِيهَا الْبِدَعُ، وَيَنْتَشِرُ فِيهَا الشِّـرْكُ بِاللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، دُونَمَا رَقِيبٍ يُنْكِرُ وَيُوَضِّـحُ، فَإِنْ وُجِـدَ هَـذَا الرَّقِيـبُ فَإِنَّهُ لا يُسْمَـعُ مِنْهُ؛ بِسَبَبِ تَشْوِيهِ سُمْعَتِهِ، وَالْقَضَاءِ عَلَى مَكَانَتِهِ.

إِذَنْ؛ فَهَذَا السَّهْمُ مِنْ سِهَامِ أَعْدَاءِ الْأُمَّةِ لَا بُدَّ أَنْ نَعْرِفَهُ، وَأَنْ نَفْطَنَ لَهُ.

فَمِنْ ثَمَّ يَأْتِي دَوْرُ الشَّابِّ الْـمُسْلِمِ فِي الالْتِزَامِ بِالْعُلَمَاءِ، وَالالْتِجَاءِ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ هَـؤُلَاءِ الْعُلَـمَاءَ مَا هُـمْ إِلَّا حَلَقَةٌ مِـنْ حَلَقَاتِ السَّنَدِ الْـمُتَواصِلِ إِلَى رَسُولِ اللَّـهِ ـ صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ.

فَالْعِلْمُ لَا يُتَلَقَّى مِنْ بُـطُونِ الْكُتُبِ، وَ«مَنْ كَانَ شَيْخُهُ كِتَابُهُ؛ كَانَ خَطَؤُهُ أَكْثَرَ مِنْ صَوَابِهِ» ـ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ ـ؛ وَإِنَّمَا الْعِلْمُ يُؤْخَذُ مِنْ أَفْوَاهِ الْعُلَمَاءِ، يُؤْخَذُ بِجَثَيَانِ الرُّكَبِ بَيْنَ يَدَيِ الْعُلَمَاءِ.

كَمَا قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ عِنْدَمَا بَكَى قُرْبَ وَفَاتِهِ؛ فَقِيلِ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: «أَبْكِي عَلَى ثَلَاثٍ: عَلَى صِيَامِ الْـهَوَاجِرِ، وَقِيَامِ الشَّوَاسِي، وَمُزَاحَمَةِ الْعُلَمَاءِ بِالرُّكَبِ».

فَالْعِلْمُ لَا يُتَلَقَّى إِلَّا مِنْ أَفْوَاهِ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَفِدْ عِلْمًا مِنْ أَفْوَاهِهِمْ؛ فَإِنَّكَ تُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا تُصْلِحُ، وَتَضِلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ؛ مِنْ حَيْثُ تَظُنُّ أَنَّكَ عَلَى هُدَىً، وَأَنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

فَلُزُومُ الْعُلَمَاءِ ـ بِإِذْنِ اللَّـهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ هُوَ عِصْمَةٌ وَنَجَاةٌ لِشَبَابِ الْأُمَّـةِ وَلِـجَمِيعِ الْأُمَّـةِ مِـنَ الْوُقُـوعِ فِي الْبِـدَعِ وَالشِّرْكِيَّاتِ، وَمِنَ الْوُقُوعِ فِي الْفَوْضَى الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي لَا يَسْتَفِيدُ مِنْهَا سِوَى إِبْلِيْسَ ـ أَعَاذَنَا اللَّـهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُ ـ، وَسِوَى أَعْدَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

وَمِنْ هُنَا؛ كَانَ الْعُلَمَاءُ يَحْرِصُونَ كُلَّ الْـحِرْصِ عَلَى تَلَقِّي الْعِلْمِ عَنْ عُلَمَائِهِمْ وَعَنْ مَشَائِخِهِمْ، حَتَّى لَـمَّا ضَـعُفَتِ الْـحَاجَةُ إِلَى الرِّحْلَةِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، كَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ يُحْيِي هَذِهِ السُّنَّةَ، وَيَرْحَلُ إِلَى الْعُلَمَاءِ فِي بُلْدَانِهِمْ؛ حَتَّى يَتَلَقَّى عَنْهُمُ الْعِلْمَ؛ لِتَكُونَ هَذِهِ السُّنَّةُ مُتَوَارَثَةً فِي الْأُمَّةِ، مُتَتَابِعًا عَلَيْهَا، لَا يَهْجُرُهَا جِيلٌ مِنْ أَبْنَاءِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْـجَمَاعَةِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ، إِنَّ قَضِيَّةَ أَخْذِ الْعِلْمِ عَنِ الْعُلَمَاءِ وَالاهْتِمَامِ بِالارْتِبَاطِ بِهِمْ قَضِيَّةٌ إِنْ رَجَعْنَا إِلَى كُتُبِ الْعُلَمَاءِ وَجَدْنَاهَا مُسَلَّمَةً، لَكِنِ الشَّأْنُ كُلُّ الشَّأْنِ فِي التَّطْبِيقِ وَالتَّنْفِيذِ لِـمَا نَجِدُهُ.

فَأَنْتَ إِذَا كُنْتَ تَصْبُو أَنْ تَكُونَ عَالِمًا مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ وَرِيثًا لِرَسُولِ اللَّـهِ ـ صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ؛ فَلْتَعْلَمْ عِلْمًا جَازِمًا أَنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ ذَلِكَ حَتَّى تَأْخُذَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ، وَحَتَّى يَكُـونَ تَلَقِّيـكَ هَـذَا الْعِلْـمَ عَـنْ طَرِيـقِ هَـؤُلَاءِ

الْعُلَمَاءِ الْأُمَنَاءِ عَلَى مِلَّةِ اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فِي الْإِسْلَامِ، وَعَلَى شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ، وَعَلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّـهِ ـ صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ.

وَإِنَّ مِمَّا جَعَلَهُ السَّلَفُ حِمَايَةً لِهَذِهِ الْقَاعِدَةِ الْجَلِيلَةِ الظَّاهِرَةِ فِي قُلُوبِهِمْ: أَنَّهُمْ تَحَدَّثُوا عَنْ أَخْذِ الْعِلْمِ عَنِ الْأَصَاغِرِ؛ فَلَمْ يُهْمِلُوهَا، وَلَمْ يَتْرُكُوهَا.

بَلْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ كَمَا فِي (الطَّبَرَانِيِّ) وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ أُمَيَّةَ الْجُمَحِيِّ ـ رَضِيَ اللَّـهُ تَعَالَى عَنْهُ ـ أَنَّ النَّبِيَّ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُلْتَمَسَ الْعِلْمُ عِنْدَ الْأَصَاغِرِ».

وَجَاءَ قَوْلُ عَبْدِ اللَّـهِ بْنِ مَسْعُودٍ ـ فِيمَا ثَبَتَ عَنْهُ عِنْدَ ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ وَغَيْرِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ ـ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا أَخَذُوا الْعِلْمَ عَنْ أَكَابِرِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ؛ فَإِذَا أَخَذُوهُ عَنْ صِغَارِهِمْ وَعَنْ شِرَارِهِمْ هَلَكُوا».

وَثَبَتَ ـ أَيْضًا ـ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ـ رَضِيَ اللَّـهُ تَعَالَى عَنْهُ ـ أَنَّهُ قَالَ: «قَدْ عَلِمْتُ مَتَى يَهْلِكُ النَّاسُ: إِذَا أَتَى الْعِلْمُ مِنَ الصَّغِيرِ اسْتَعْصَى عَلَيْهِ الْكَبِيرُ، وَإِذَا أَتَى الْعِلْمُ مِنَ الْكَبِيرِ قَبِلَهُ الصَّغِيرُ؛ فَاهْتَدَيَا».

كُلُّ هَذِهِ الْآثَارِ تَدُلُّنَا أَنَّ السَّلَفَ اعْتَنَوْا بِقَضِيَّةِ التَّلَقِّي عَنْ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ فَبَيَّنُوا وُجُوبَهَا ـ مِنْ جِهَةٍ ـ، وَبَيَّنُوا مَا يُعَكِّرُ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ الْجَلِيلَةِ الَّتِي مِنْ خِلَالِهَا يَصِلُ الْعِلْمُ إِلَى النَّاسِ كَمَا كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّـهِ ـ صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ.

فَهَذِهِ الْآثَارُ هِيَ مِنْ ضِمْنِ التَّحْصِينَاتِ لِأَبْنَاءِ الْأُمَّةِ؛ حَتَّى لَا يَقَعُوا فِي شَرَكِ وَحَبَائِلِ الشَّيْطَانِ.

فَمَنِ الْأَصَاغِرُ هُنَا؟

كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ الْأَصَاغِرَ هُنَا هُمْ أَهْلُ الْبِدَعِ وَالْأَهْوَاءِ ـ وَهَذَا صَحِيحٌ ـ.

وَمِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ـ كَالْإِمَامِ ابْنِ قُتَيْبَةَ، وَتَبِعَهُ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ فِي نَصِيحَتِهِ لِأَهْلِ الْحَدِيثِ ـ: أَنَّ الصِّغَارَ هُنَا يُرَادُ بِهِمْ صِغَارُ الْأَسْنَانِ، الَّذِينَ لَمْ يَتَأَهَّلُوا بِالْعِلْمِ، وَلَمْ يَتَضَلَّعُوا بِهِ؛ فَإِنَّ الْأَخْذَ عَنْ هَؤُلَاءِ مَذْمُومٌ، لَا لِأَجْلِ صِغَرِ أَسْنَانِهِمْ؛ وَإِنَّمَا لِأَجْلِ قِلَّةِ عِلْمِهِمْ مَعَ حَدَاثَةِ أَسْنَانِهِمْ؛ فَاجْتَمَعَ سُوءَانِ: سُوءٌ فِي صِغَرِ الْأَعْمَارِ، وَعَدَمِ التَّجْرِبَةِ وَالْمُمَارَسَةِ، وَعَدَمِ الْفَهْمِ الْبَعِيدِ الْوَاسِعِ لِلْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ وَكَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَهَا. وَاجْتَمَعَ قِلَّةُ الْعِلْمِ ـ وَهِيَ الدَّاءُ الْعُضَالُ ـ؛ فَمَنَعُوا مِنَ الْأَخْذِ عَنْ مِثْلِ هَؤُلَاءِ.

لِمَاذَا؟ لِأَنَّ هَذَا الْعِلْمَ ـ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ ـ لَيْسَ مَاءً تَشْرَبُهُ؛ هَذَا الْعِلْمُ هُوَ شَرِيعَةُ اللَّـهِ، هُوَ وَحْيُ اللَّـهِ إِلَى مُحَمَّدٍ ـ صَلَّى اللَّـهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ.

سُئِلَ الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَقِيلَ: إِنَّهَا خَفِيفَةٌ؛ فَقَالَ غَاضِبًا: «وَهَلْ فِي دِينِ اللَّـهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مَسْأَلَةٌ خَفِيفَةٌ؟! أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّـهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[المزمل:٥]؟!».

فَهَذِهِ الشَّرِيعَةُ حِمْلُهَا عَظِيمٌ، وَمَسْؤُولِيَّتُهَا كَبِيرَةٌ.

وَلِهَذَا؛ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ النَّاسَ سَوَاسِيَةً فِي تَحَمُّلِهَا وَالْقِيَامِ بِهَا؛ وَإِنَّمَا اخْتَصَّ الْعُلَمَاءَ فَقَطْ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمًا بِالْقِسْطِ﴾[آل عمران:١٨].

فَلَمْ يَقْبَلْ شَهَادَةَ غَيْرِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الْعُدُولُ الْأُمَنَاءُ عَلَى حَمْلِ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْحَسَنِ عَنْهُ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ: «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ؛ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ».

إِذَنْ؛ فَهَذَا الْحَدِيثُ يُشِيرُ إِلَى فِئَتَيْنِ مِنَ النَّاسِ:

فِئَةٌ قَبِلَتْ هَذَا الْعِلْمَ، وَتَلَقَّتْهُ عَنْ طَرِيقٍ صَحِيحٍ سَلِيمٍ؛ فَهُمْ يَنْفَعُونَ الْأُمَّةَ، وَيُثْمِرُونَ فِيهَا خَيْرًا.

وَقَوْمٌ آخَرُونَ أَخَذُوا هَذَا الْعِلْمَ مِنْ غَيْرِ مَأْخَذِهِ، وَأَخَذُوهُ مِنْ غَيْرِ حَقٍّ؛ فَأَصْبَحُوا يَتَخَبَّطُونَ فِيهِ، وَيُضِلُّونَ الْأُمَّةَ، يُحَرِّفُونَ وَيَغْلُونَ وَيَجْهَلُونَ، فَهَؤُلَاءِ.. الْعُلَمَاءُ الْأُمَنَاءُ هُمُ الَّذِينَ يَذُبُّونَ كَيْدَ هَؤُلَاءِ، وَهُمُ الَّذِينَ يُبْطِلُونَهُ.

إِذَنْ؛ فَالْعِلْمُ ثَقِيلُ الْمَحْمَلِ، كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ مَقَامَاتِ بَدِيعِ الزَّمَانِ أَنَّهُ قَالَ:

«حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: كُنْتُ فِي بَعْضِ مَطَارِحِ الْغُرْبَةِ مُجْتَازًا، فَسَمِعْتُ رَجُلًا يَقُولُ لِآخَرَ: بِمَ أَدْرَكْتَ الْعِلْمَ؟ قَالَ: طَلَبْتُهُ فَوَجَدْتُهُ بَعِيدَ الْمَرَامِ، لَا يُصَادُ بِالسِّهَامِ، وَلَا يُورَثُ عَنِ الْآبَاءِ وَالْأَعْمَامِ، وَلَا يُرَى فِي الْمَنَامِ؛ فَتَوَسَّلْتُ إِلَيْهِ بِافْتِرَاشِ الْحَجَرِ، وَاسْتِنَادِ الْمَدَرِ، وَرُكُوبِ الْخَطَرِ، وَإِدْمَانِ الْفِكَرِ؛ فَوَجَدْتُهُ شَيْئًا لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلْغَرْسِ، وَلَا يُغْرَسُ إِلَّا فِي النَّفْسِ، أَرَأَيْتَ مَنْ أَشْغَلَ نَهَارَهُ فِي الْجَمْعِ وَلَيْلَه فِي الْجَمَاعِ، هَلْ يَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ فَقِيهًا؟! كَلَّا ـ وَاللَّهِ ـ؛ إِنَّ الْعِلْمَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا لِمَنِ اعْتَوَزَ الدَّفَاتِرَ، وَحَمَلَ الْمَحَابِرَ، وَقَطَعَ الْقِفَارَ، وَوَاصَلَ فِي الطَّلَبِ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ».

أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ إِمَامُ أَهْلِ السُّنَّةِ ابْيَضَّتْ لِحْيَتُهُ شَيْبًا وَالْقَلَمُ فِي يَدِهِ، وَالنَّعْلُ فِي يَدِهِ يَعْدُو حَتَّى يُحَصِّلَ مَجْلِسًا، قِيلَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، إِلَى مَتَى؟! قَالَ: «مِنَ الْمِحْبَرَةِ إِلَى الْمِقْبَرَةِ».

هَؤُلَاءِ هُمْ عُلَمَاءُ الْأُمَّةِ، أَعْطَوُا الْعِلْمَ كُلَّهُمْ؛ فَأَعْطَاهُمُ الْعِلْمُ بَعْضَهُ.

وَلِهَذَا؛ كَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ يَدْعُو كَثِيرًا لِلْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ: يَا أَبِي، أَيُّ رَجُلٍ الشَّافِعِيّ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُكَ تُكْثِرُ الدُّعَاءَ لَهُ؟ قَالَ: «يَا بُنَيَّ، إِنَّهُ كَالشَّمْسِ لِلدُّنْيَا، وَكَالْعَافِيَةِ لِلنَّاسِ؛ أَفَعَنْ هَذَيْنِ خَلَفٌ؟! أَوْ مِنْ هَذَيْنِ عِوَضٌ؟!».

فَهَؤُلَاءِ هُمُ الْعُلَمَاءُ الصَّادِقُونَ، هُمُ الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ تَلَقَّوُا الْعِلْمَ بِطَرِيقٍ صَحِيحٍ، حَرَصُوا عَلَى الْوُصُولِ إِلَى مَسَائِلِ الْإِجْمَاعِ وَمَعْرِفَتِهَا، حَرَصُوا فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ عَلَى الْوُقُوفِ عَلَى حَقِيقَةِ مَا أَرَادَهُ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وَمَا يُرِيدُهُ ـ تَبَارَكَ

وَتَعَالَى ـ فِي حُكْمِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، اجْتَنَبُوا شَوَاذَّ الْعُلَمَاءِ وَمُخَالَفَاتِهِمْ؛ فَلَمْ يَعْتَمِدُوا عَلَيْهَا، وَلَمْ يَنْظُرُوا فِيهَا، هَؤُلَاءِ هُمُ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يُحْيِي اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بِهِمْ هَذِهِ الْأُمَّةَ.

أَمَّا مَا نُشَاهِدُهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَى طَلَبِ الْعِلْمِ ـ وَهُمْ قِلَّةٌ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ـ؛ وَهُوَ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الْعِلْمَ كَأَنَّهُ تَفَكُّهٌ، أَوْ يَأْخُذُونَ الْعِلْمَ فِي الْمَسَائِلِ الْكِبَارِ قَبْلَ الصِّغَارِ ـ فَهَؤُلَاءِ قَدْ بَاعَدُوا الصَّوَابَ، وَلَمْ يُوَفَّقُوا فِي السَّيْرِ السَّلِيمِ لِتَلَقِّي الْعِلْمِ. وَلِهَذَا؛ تَنْقَطِعُ بِهِمُ الرِّكَابُ فِي خِلَالِ الطَّرِيقِ؛ فَيَتَلَاشُونَ وَيَذْهَبُونَ، وَلَا يَصِحُّ إِلَّا الصَّحِيحُ، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾[الرعد:١٧].

فَيَا أَخِي الشَّابَّ، إِنَّ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فِي هَذَا الزَّمَنِ بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَيْكَ وَإِلَى أَمْثَالِكَ؛ الْأَمْرُ عَظِيمٌ، وَالْخَطْبُ جَلِيلٌ، وَالْحَاجَةُ مُلِحَّةٌ، وَلَا بُدَّ أَنْ نَصْنَعَ مِنْ شَبَابِنَا مَنْ يَكُونُ أَهْلًا لِحَمْلِ الْعِلْمِ كَمَا حَمَلَهُ السَّلَفُ ـ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ ـ.

وَإِلَّا مَاذَا؟ وَإِلَّا فَإِنَّ الْأُمَّةَ سَوْفَ يَفْشُو فِيهَا الْجَهْلُ، وَإِذَا فَشَا فِيهَا الْجَهْلُ؛ فَإِنَّ الظَّلَامَ مُخَيِّمٌ، وَإِنَّ الْبَلَاءَ عَمِيمٌ.

وَلِهَذَا؛ قَالَ النَّبِيُّ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ عِنْدَمَا يَذْهَبُ الْعُلَمَاءُ؛ فَيَتَّخِذُ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَلَاءَ؛ فَيُفْتُونَ بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ.

الشِّرْكُ أَعْظَمُ أَمِ الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ؟

إِنَّ اللَّهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ رَتَّبَ الْمُنْكَرَاتِ، وَبَدَأَ بِالْأَسْهَلِ وَانْتَهَى بِالْأَكْبَرِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:٣٣].

لِمَاذَا جُعِلَ الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بِغَيْرِ عِلْمٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَوْقَ الشِّرْكِ بِاللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ شُؤْمًا وَقُبْحًا؟

لِأَنَّ الْقَوْلَ عَلَى اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بِغَيْرِ عِلْمٍ هُوَ الْجَهْلُ الَّذِي عَنْ طَرِيقِهِ يَفْشُو الشِّرْكُ فِي الْأُمَّةِ، وَتَنْتَشِرُ الْبِدَعُ، وَيُغَيَّرُ دِينُ اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ، نَحْنُ ـ بِحَمْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ـ أُنْعِمَ عَلَيْنَا فِي هَذَا الْبَلَدِ بِوُجُودِ عُلَمَاءَ ثَبَتَتْ عَدَالَتُهُمْ، وَاشْتَهَرَتْ نَزَاهَتُهُمْ، وَظَهَرَ صِدْقُهُمْ؛ فَالْحِرْصُ عَلَى تَلَقِّي الْعِلْمِ عَنْهُمْ هُوَ سَبِيلُ الْحِفَاظِ عَلَى هَذِهِ الشَّبِيبَةِ، وَهُوَ الطَّرِيقُ الْوَحِيدُ لِإِيصَالِهِمْ إِلَى بَرِّ الْأَمَانِ؛ حَتَّى تَقَرَّ بِهِمْ أَعْيُنُ الْأُمَّةِ، وَيَقَرُّوا هُمْ بِأَنْفُسِهِمْ عَيْنًا؛ لِمَا يَرَوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ حِفْظِ أَوَامِرِ اللَّهِ وَأَوَامِرِ رَسُولِهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ مِنْ تَبْلِيغِ شَرْعِ اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً.

فَلُزُومُ هَؤُلَاءِ وَالْحِرْصُ عَلَيْهِمْ أَمْرٌ مَطْلُوبٌ وَمُتَعَيِّنٌ عَلَى الشَّبِيبَةِ، أَمَّا إِذَا كَانُوا يُلَقِّحُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيُمْلِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ؛ فَإِنَّ هَذَا هُوَ بِدَايَةُ الْخَلَلِ فِي الْأُمَّةِ.

وِلِهَذَا؛ كَانَ الْخَوَارِجُ أَوَّلَ مَا ضَلُّوا أَنِ ابْتَعَدُوا عَنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ وَلَمْ يَثِقُوا بِهِمْ؛ فَالْخَارِجِيُّ لَمْ يَثِقْ بِرَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ وَقَالَ: «اعْدِلْ ـ يا مُحَمَّدُ ـ»(!!).

وَالْخَوَارِجُ نَشَؤُوا فِي عَهْدِ عُمَرَ، وَانْتَقَدُوا عَلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ فِي وِلَايَتِهِ عَلَى مِصْرَ أُمُورًا كَثِيرَةً، وَقَالُوا: إِنَّهُ يَحْكُمُ بِغَيْرِ مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ!! فَجَاؤُوا إِلَى عُمَرَ، فَأَدَّبَهُمْ؛ فَانْقَمَعُوا.

ثُمَّ جَاءَ عُثْمَانُ ـ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ـ، فَابْتَعَدُوا عَنْهُ، وَابْتَعَدُوا عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ.

إِلَى أَنْ جَاءَ عَلِيٌّ ـ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَاهُ ـ، فَانْصَرَفُوا عَنْهُ، وَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ عَلَى هُدَىً، وَأَنَّهُمْ عَلَى خَيْرٍ؛ فَكَانَ مِنْهُمْ مَا كَانَ، مِنْ تَمْزِيقِ الْأُمَّةِ، وَمِنْ طَعْنِهَا فِي مَقْتَلٍ، وَمِنْ إِيرَادِ الْأَفْكَارِ الْمُنْحَرِفَةِ الشَّاذَّةِ، وَالتَّفْكِيرِ بِطَرِيقَةٍ لَا يَرْضَاهَا اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وَلَا يَرْضَاهَا رَسُولُهُ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ، جَاؤُوا بِطَرِيقَةِ التَّعَامُلِ مَعَ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى غَيْرِ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ ـ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ ـ.

فَإِذَنْ؛ كُلَّمَا ابْتَعَدَتِ الْأُمَّةُ عَنِ الْعُلَمَاءِ كُلَّمَا كَانُوا أَقْرَبَ إِلَى إِصَابَةِ مَقَاتِلِهِمْ.

وِلَا أَقُولُ: إِنَّ الْعُلَمَاءَ مَعْصُومُونَ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَقُولُهُ أَحَدٌ؛ فَقَدْ نَصَّ الشَّاطِبِيُّ عَلَى أَنَّنَا حِينَمَا نَقُولُ: إِنَّ أَخْذَ الْفَتْوَى عَنِ الْعُلَمَاءِ وَلَوْ لَمْ يَذْكُرُوا دَلِيلًا، لَيْسَ لِأَجْلِ تَعْظِيمِ ذَوَاتِهِمْ؛ وَإِنَّمَا لِأَجْلِ أَنَّهُمْ انْتَصَبُوا لِحِفْظِ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ، وَقَامُوا عَلَيْهَا؛ فَتَعْظِيمُ أَقْوَالِهِمْ هِيَ مِنْ أَجْلِ مَا أَعْطَتْهُ الشَّرِيعَةُ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلٍ، وَمِنْ أَمْرٍ بِطَاعَتِهِمْ، وَمِنْ أَمْرٍ لِلرُّجُوعِ إِلَيْهِمْ؛ كَمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ: ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ﴾[النساء: ٨٣]، فَأُولُو الْأَمْرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُمُ الْعُلَمَاءُ؛ لِأَنَّهُمْ هُمْ أَهْلُ الاسْتِدْلَالِ، هُمْ أَهْلُ النَّظَرِ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ـ؛ فَهُمْ قَدْ بَذَلُوا جُهْدَهُمْ.

مَاذَا يَعْنِي بَذْلُ الْجُهْدِ؟ الرَّسُولُ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ يَقُولُ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ فَأَصَابَ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ. وَإِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ؛ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ»، فَالرَّسُولُ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ لَمْ يُغْفِلِ الْإِشَارَةَ ـ بَلِ التَّصْرِيحَ ـ لِأَمْرِ الاجْتِهَادِ، فَإِذَنْ؛ مَا هُوَ هَذَا الاجْتِهَادُ؟

هُوَ: بَذْلُ الوُسْعِ فِي مَعْرِفَةِ كَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ، بِذَلِكَ أَصَابَ مَنْ أَصَابَ مِنْهُمْ فَأَخَذَ الْأَجْرَيْنِ، وَلَمَّا أَخْطَأَ مَنْ أَخْطَأَ مِنْهُمْ أَخَذَ أَجْرًا وَاحِدًا، لِمَاذَا؟ لِأَنَّهُ قَامَ بِعِبَادَةٍ جَلِيلَةٍ لَا يَقُومُ بِهَا إِلَّا الْعُلَمَاءُ؛ وَهِيَ بَذْلُ الْجُهْدِ فِي مَعْرِفَةِ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

بَذْلُ الْجُهْدِ هَذَا يَحْتَاجُ إِلَى سَنَةٍ، أَمْ سَنَتَيْنِ، أم عَشْرٍ، أم عِشْرِينَ؟!

بَذْلُ الْجُهْدِ قَدْ يُمْضِي الْإِنْسَانُ عُمُرَهُ كُلَّهُ فِي التَّعَلُّمِ وَالدِّرَاسَةِ.

وَلِهَذَا؛ جَاءَ عَنْ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ ـ أَنَّهُ خَتَمَ الْبَقَرَةَ ـ فِي كَمْ سَنَةٍ؟ ـ فِي ثَمَانِ سَنَوَاتٍ، عُمَرُ ـ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ ـ رَوَى عَنْهُ مَالِكٌ ـ وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ الْقُرْطُبِيُّ فِي (تَفْسِيرِهِ) ـ أَنَّهُ جَلَسَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ثَمَانِ سَنَوَاتٍ وَهُوَ يَقْرَؤُهَا.

إِذَنْ؛ بِذْلُ الْجُهْدِ الَّذِي يُخَوِّلُكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِي شَرِيعَةِ اللَّـهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لَيْسَ مَاءً تَشْرَبُهُ، وَلَيْسَ أَكْلَةً تَأْكُلُهَا؛ وَإِنَّمَا هُوَ اسْتِفْرَاغُ مَا فِي نِفْسِكَ مِنْ طَاقَةٍ؛ حَتَّى تَتَوَصَّلَ إِلَى مَعْرِفَةِ شَرْعِ اللَّـهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ.

وَلِهَذا؛ الْعُلَمَاءُ نَبَّهُونَا عَلَى قَضِيَّةٍ مُهِمَّةٍ؛ وَهِيَ قَضِيَّةُ تَفَقُّهِ مَنْ لَيْسَ أَهْلًا لِلْفِقْهِ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ دَاؤُهُمْ عَلَى الْأُمَّةِ أَكْبَرُ مِنْ دَاءِ غَيْرِهِمْ.

فَقَالَ الْإِمَامُ مَكْحُولٌ الشَّامِيُّ ـ فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ ـ: «تَفَقُّهُ الرَّعَاعِ فَسَادُ الدِّينِ، وَتَفَقُّهُ السِّفْلَةِ فَسَادُ الدُّنْيَا» ـ أَوْ كَمَا قَالَ رَحِمَهُ اللَّـهُ تَعَالَى ـ.

إِذَنْ؛ فَالْعُلَمَاءُ مِنْ قَدِيمٍ يَفْطَنُونَ إِلَى أَنَّ مَنْ تَوَلَّى الْعِلْمَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى أَهْلٍ، وَعَلَى أَهْلِيَّةٍ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ قُدْرَةٌ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَبْرٌ، وَمُخَاطَرَةٌ، وَمُثَابَرَةٌ.

ابْنُ عَبَّاسٍ يَأْتِي عِنْدَ بَيْتِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ وَيَسْتَلْقِي، فَتَسْفِي الرِّيحُ عَلَى بُرْدِهِ، فَيَخْرُجُ زَيْدٌ وَيَسْأَلُهُ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ حَدِيثٍ، وَيَقُولُ: «يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّـهِ، أَفَلَا جَلَسْتَ فِي بَيْتِكَ حَتَّى آتِيكَ؟!»، فَيَقُولُ: «لَا؛ إِنَّا هَكَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَصْنَعَ بِالْعُلَمَاءِ».

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: أُمِرُوا أَنْ يَصْنَعُوا بِالْعُلَمَاءِ: لُزُومُهُمْ، وَالصَّبْرُ عَلَى مَا يَنَالُ طَالِبَ الْعِلْمِ مِنْ أَذًى؛ حَتَّى يَتَوَصَّلَ إِلَى حُكْمِ مَسْأَلَةٍ، أَوْ مَعْرِفَةِ حَدِيثٍ، أَوْ تَفْسِيرِ آيَةٍ مِنْ كَلَامِ اللَّـهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

فَالْمَسْأَلَةُ بَذْلُ جُهْدٍ، وَلَيْسَتْ مَسْأَلَةً مُشْتَرَكَةً لِلْجَمِيعِ؛ فَكُلُّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ عَنْ قَضَايَا الشَّرْعِ يَتَكَلَّمُ.

وَهَذَا الَّذِي يُرِيدُهُ كَثِيرٌ مِنَ الضَّالِّينَ مِمَّنْ يَنْتَسِبُونَ إِلَى الْعِلْمَانِيِّينَ وَنَحْوِهِمْ مِنَ الْمَذَاهِبِ الْكُفْرِيَّةِ الضَّالَّةِ: يُرِيدُونَ أَنْ يَكُونَ الْعِلْمُ مُشَاعًا مُشْتَرَكًا؛ يَكْتُبُ الصَّحَفِيُّ فِيهِ، وَيَكْتُبُ فِيهِ الطَّبِيبُ، وَيَكْتُبُ فِيهِ الْمُهَنْدِسُ.

سُبْحَانَ اللَّـه! الطِّبُّ أُلِّفَ فِيهِ كُتُبٌ كَثِيرَةٌ؛ بِحَيْثُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْرَأَهَا، وَأَنْ يَعْرِفَ مَاذَا يَدُورُ فِيهَا، لَكِنْ هَلْ جَرَأَ أَحَدٌ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ أَنْ يُرَاجِعَ كِتَابَ (د. بُك)، أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ الْمُشْتَهِرَةِ فِي الطِّبِّ وَالَّتِي تَذْكُرُ الْمَرَضَ، وَتُشَخِّصُهُ، وَتُعْطِيكَ الْعِلَاجَ؛ فَيَأْخُذُ مِنْهَا، وَيَذْهَبُ وَيَشْتَرِي مِنَ الصَّيْدَلِيَّةِ، وَيَأْخُذُ الْعِلَاجَ؟!

أَبَدًا؛ كُلٌّ يَذْهَبُ إِلَى الْأَطِبَّاءِ، وَيَتَفَاوَتُ النَّاسُ؛ مِنْهُمْ مَنْ لَا يَذْهَبُ إِلَّا إِلَى اسْتِشَارِيِّينَ؛ حَتَّى يَتَأَكَّدَ..

فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي طَبِّ الْأَبْدَانِ، فَكَيْفَ بِطِبِّ الْأَرْوَاحِ؟! وَكَيْفَ بِطِبِّ الْقُلُوبِ ـ وَهُوَ الشَّرِيعَةُ ـ؟!

إِنَّ الشَّرِيعَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ لَيْسَ فِيهَا كَحَالِ النَّصْرَانِيَّةِ (رِجَالُ كَهَانُوتٍ) أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، لَا؛ وَلَكِنْ فِيهَا عُلَمَاءُ عَنْ طَرِيقِهِمْ يُتَلَقَّى الْعِلْمُ، وَيُؤْخَذُ عَنْهُمُ الْعِلْمُ، لِمَاذا؟ لِأَنَّهُمْ هُمْ أَهْلُهُ، وَهُمُ الْقَائِمُونَ عَلَيْهِ، وَهُمُ الَّذِينَ بَذَلُوا الْوُسْعَ فِي

سَبِيلِ تَحْصِيلِهِ؛ فَهُمْ يَعْرِفُونَ لُغَةَ الْعَرَبِ، وَيَعْرِفُونَ مَدْلُولَ الْأَلْفَاظِ، وَيَعْرِفُونَ النَّاسِخَ مِنَ الْمَنْسُوخِ، وَيَعْرِفُونَ الْمُطْلَقَ مِنَ الْمُقَيَّدِ، وَيَعْرِفُونَ الْمُجْمَلَ مِنَ الْمُبَيَّنِ، وَيَعْرِفُونَ الْعَامَّ مِنَ الْخَاصِّ، وَيَتَعَامَلُونَ مَعَ نُصُوصِ الشَّرْعِ بِالتَّعَامُلِ الصَّحِيحِ الَّذِي كَانَ يَفْعَلُهُ الصَّحَابَةُ ـ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ ـ.

لَا أُحِبُّ أَنْ أُطِيلَ عَلَيْكُمْ كَثِيرًا، وَالَّذِي أَخْتِمُ بِهِ هَذَا الْحَدِيثَ أَنَّنِي أُكَرِّرُ أَنَّ الْأُمَّةَ فِي الزَّمَنِ الْمُسْتَقْبَلِ بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَى عُلَمَاءَ، لَيْسَتْ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْصَافِ عُلَمَاءَ؛ لِأَنَّ أَنْصَافَ الْعُلَمَاءِ يَضُرُّونَ لَا يَنْفَعُونَ.

فَمَنِ الَّذِي مِنْكُمْ يَحْتَسِبُ وَيَنْتَصِبُ لِلُزُومِ عُلَمَائِنَا الْكِبَارِ فِي أَخْذِ الْعِلْمِ عَنْهُمْ، وَالتَّرَوِّي، وَالْبَدَاءَةِ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ؛ حَتَّى نَنْعَمَ بِهِ، وَنَقَرَّ بِهَا عَيْنًا، عِنْدَمَا تَكُونُ الْأُمَّةُ تَتَلَمَّسُ وَتَبْحَثُ بَيْنَ أَبْنَائِهَا مَنْ هُوَ الْعَالِمُ الَّذِي يَنْهَضُ بِهَا؟!

كُلٌّ مِنَّا يَجْعَلُ هَذَا الْأَمْرَ فِي مُخَيِّلَتِهِ وَفِي ذِهْنِهِ.

أَسْأَلُ اللَّهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَنْ يَرْزُقَنِي وَإِيَّاكُمْ عِلْمًا نَافِعًا، وَعَمَلًا صَالِحًا، وَأَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالسُّنَّةِ.

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

فَرَغْتُ ـ بِحَمْدِ اللَّهِ ـ مِنْ إِعْدَادِ هَذِهِ الْمَادَّةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ٢٩/ ٦/ ١٤٢٨هـ الْمُوَافِقِ: ١٣/ ٧/ ٢٠٠٧م.

وَلِلْأَمَانَةِ؛ أَقُولُ: قَامَتِ الْأُخْتُ الْفَاضِلَةُ: أُمُّ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْأَثَرِيَّةُ ـ جَزَاهَا اللَّهُ خَيْرًا ـ بِتَفْرِيغِ الْمَادَّةِ أَصْلًا، فَقُمْتُ مِنْ بَعْدِهَا بِتَفْرِيغِ مَا لَمْ تُفَرِّغْهُ هِيَ مِنَ الشَّرِيطِ، وَبِتَصْحِيحِ الْأَخْطَاءِ الْمَوْجُودَةِ فِي تَفْرِيغِهَا، وَبِمُرَاجَعَةِ الْمَادَّةِ وَمُقَارَنَتِهَا مَعَ الْمَادَّةِ الْمَسْمُوعَةِ، وَأَخِيرًا قُمْتُ بِضَبْطِ النَّصِّ بِالشَّكْلِ التَّامِّ؛ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا.

تَارِيخُ نَشْرِ هَذِهِ الْمَادَّةِ الْمُعَدَّلَةِ: الْجُمُعَةَ ٢٠/ ٨/ ١٤٢٩هـ الْمُوَافِقِ: ٢٢/ ٨/ ٢٠٠٨م.